عيناك مرسى

لا الشَوقُ ينبغي لهُ أن يُدرِكَ البصر، لكنّهُ يفعلُ أحيانًا ليكشفَ عنّا سوءات الحُب، فنواريها بالمُكابرة حينًا والمُماطلة حينًا، والرّوحُ معلّقة.. بينَ الألفِ والكاف.. وحرفا "حبٍّ" بينَهُما.. شاردان".. كانَ شتاءً ساديًّا، شتاءً غوغائيَّ الهوى، كانَ صقيعهُ يُنبّؤني بجُنونٍ قادم.. ولكنّي لم أُدرِك أنَّ جنونَهُ سيكونُ على يديك.. وكنتُ أدري أنَّ آلهةَ الحبِّ تُرَتِلُ ترانيمها شتاءً، وغَفُلَ عن قلبي، أنَّها قد تُرَتِلُ ترنيمةً لكلينا.. ذاتَ شتاء ..وقد فعلتْ الآلهة..

بقلم : حلا المطري

وكانَ يا صديقي ما كان .فاسمح لي أن أبدأَ سطرًا اسمه "أنت"..

وأن أقُصَّ عليكَ ما كان.. وما لم يكن، فكلّها في فضاءاتِ الحبِّ عزيزي.. ذلك الكون الموازي، الذي تسرحُ فيهِ أرواحُنا، هروبًا من عُقم الواقع، وإجهاض الحُلم، وليتها الأحلامُ لم تنجب واقعًا.. فلم يكن الواقع سوى ابنَ خطيئة.. فتحطّمَ الأمسُ بالغد..

لِمَ خرجتَ لي من ذاكَ العالم الأزرق المدعوِّ فيسبوك؟ ألم يكُن حريٌّ بكَ أن تظلَّ متخفيًا خلفه..؟ ليتكَ ظللتَ مُعادلة لم أكترث لفكّها.. لكنّكَ أتيت لتُطالبَ بحقِّ إطاحتي، وليتَ لم تفعل ..

المكان: محطة الشهداء ..

الزمان: صباحًا ذاتَ حُب ..

وبعدَ أن قَذفَتني سيلُ النّساء من المترو، خرجتُ منه ضاحكة، أبحثُ عن هاتفي لأخبركَ بوصولي.. الحشدُ كانَ مخيفًا بما يكفي ليزيدَ من إرباكي، هاتفتُكَ.. وأتى صوتكَ دافئًا :

-- أينَ أنتِ يا هالة؟

-- وصلتُ لتّوي محطة الشهداء ..

-- انتظريني أمامَ السُّلم الكهربائي ..

دقائق مضت لم تكُن سوى نبضاتِ عشقٍ جميعها، شعرتُني طفلةً في انتظارِ العيد _أنت_

لم أكن أدري أنّي بذلكَ الجنون، وقد عصيتُ الطاعات وخرجتُ عن الصراطِ الذي قالوا عنه مستقيمًا، فكيفَ لشابةٍ عشرينية من أسرةٍ محافظةٍ أن تقتحمَ أي جنونٍ مجتمعيٍّ كان؟؟، وتدعو شابًا عَرَفتهُ عن طريق الفيسبوك لفنجانِ قهوةٍ على نخبِ لقاء؟

لن يفهمونا يا عُمر.. لن يفعلوا. يلزَمُهم أن يغيروا دمائـهم فعلى قلوبهم غشاوة. أردتُ أن انتعلَ المجتمع على سبيل التّغيير فكم مللتُ انتعالَهُ إيّاي ،انتعلتهُ.. لأجلك، ولأطلق جنوني في العراء، بلا خوف .

كنتُ أقفُ قِبالةَ السُّلَم الكهربائي انتظركَ بقلق، عيون المارة كانت تخبرني كم بدوتُ جميلةً ذاكَ الصباح، لكنّني تساءلتُ إن كنتُ سأبدو جميلةً أمامَ عينيك.. عينيك .. ذلك المرسى .

ازدادَ اضطرابي وحشودُ البشر تستقلُ السُّلَم، إلى أن رأيتُك، بدوتَ كما في صورتك الفيسبوكية تلك، أنيقَ الملامح، دافئَ القسمات.. ولكنَي لم استكن، بل جزعت.. وعدت لأربعِ أو خمس خطوات إلى الوراء خشيةَ أن يخونني قلبي فتتساقط نبضاتي على أعتابك..

عجبتُ لأمري، أنا التي تدري أن في حياتكَ أخرى _قدّيسة_ ملائكية الهوى، سلام، فتاتُكَ.. التي كم تسامرنا بذكرها على الفيسبوك.. تلكَ التي أحيتكَ لتُرديكَ عاشقًا وقتيلا .

ولدى عودة اتزاني قادتني قدماي إليك.. وصافحُتكَ باسمة :

--عُمر؟

-هالة ؟

يداكَ بدفءِ شمسٍ أعلى جبلٍ جليديٍّ.. وكانَ الجليدُ قلبي.. في قلبِ شمسك .غطى الخجلُ وجهي وأنا أسيرُ قربَ طيفكَ الطويل، كنتَ مستاءً من انتظاري ووصفي الأسوأ للإتجاهات لكنّكَ سرعان ما ابتسمتَ وقد أدركتَ طفولتي .

-لم أكن أدري أنّكِ جميلةٌ لهذهِ الدرجة، لم توفّكِ الصور حقّكِ .ابتسمتُ لك وأدرتُ وجهي بعيدًا بعد أن وضعتُ يداي في قلبِ معطفي وكأنّي بذلك أفرُّ منك.. فأعودُ مسرعةً إليك .يُقال أنّنا نولدُ لا نخشى شيئًا بالفطرة، وأنَّ من حولنا هم من يبثونَ الخوفَ فينا، لذلكَ نكبُر.. وننقَلب على أنفُسِنا.. ونتحول إلى بشرٍ يبثونَ الخوفَ في أنفسِهم أيضًا .وكانَ الخوفُ عشقًا عزيزي، هكذا حكى الأجداد وطبّقَ الآباء وحُكِمَ على الأبناء بالحياةِ الشاقة التي خَلت من جنونِ العشق وروعةِ التّحليقِ هيامًا .

كانَ ذلكَ كفيلاً بما يكفي لأجربَ جنونًا معك، وكم أحببتُ الجنونَ على يديك..

أنا المناصرة للحب، الخائفة من الوقوعِ فيه.. وجدتُني أُعرّفهُ سرًا وأنتَ تسيرُ إلى جواري دونَ وجهِ حب، وإن كانَ لي أن أخطَّ بعضًا مّما أذكر فاسمح لي أن أقولَ لكَ.

"الحب هو أن تسعى وتجاهد في حبِّ الآخر، أن تكونَ معطاءً. ألّا تُهان عشقًا، ألّا يُهانَ انتظارُكَ وصبرُكَ... أن تُقدّر،أن تحيا وتموت لتحيا.. لا أن تكون (عاشق إكلينيكيًّا)، أو ماسوشي برتبة امتياز..

يعشق ليتألم ولا يأخذ من الحب سوى الوجع والخذلان، لا يأخذ من الحب سوى ذكريات عابرة في قلبِ ذاكرة يائسة تنحرهُ بتلكَ الومضات الزمنية القديمة لشيءٍ أسماه "الحب" وكان فاتحةَ الوجع.. أتراكَ كنتَ لعنتي؟ ما أجملَ أن تكون ملعونًا بالعشقِ لا الحب..

أنت إذن غامض، تقيّمُ الأشياءَ صمتًا، أنتَ إذن مجنون، تبدو هادئًا ولكن في كيانك عالمٌ مشتعل لا يحرقُ سوى أفئدتك ..أنتَ ملعون بالعشق، إذن لكَ روحٌ خالدة، تهيمُ في الأرض عشقًا.. وتعودُ إليكَ آخرَالمساء مجهدة، فتدعوها لمخدعك: أن تعالي منفاك .وكم تعود إليَّ روحي.. مجهدةٌ بك . صوتُكَ كانَ آسرًا، كنتُ أدري كم سأعشقهُ، بل عشقتهُ بالفعل.. صوتكَ يعكس صبرًا وعشق .

سألتُ نفسي، أبهذا أنا خائنة لحبّكَ لها؟؟ فسألتكَ على ذاتِ طاولة وكرسيين :

-ما أخبار سلام؟ أحادثتكَ؟؟

-تدرين أنّها لا تفعل.. سأظلُّ عاجزًا أن أسرِ قلبها .

-حاول إذن- ..حاربتُ حدَّ نفاذ ذخائري نبضًا.. حدَّ انكسارِ الروح، ويا عزيزتي لا أرضى انكسار .

-نَل شرف المحاولة ..أجبتني ببسمة، تلاها عينان شاردان.. غائبان يفران في عُجالة. أذكركَ اليوم، وكأن ألف يومٍ قد مرّت بيننا.. وأعجبُ من نفسي، وعشقي" .ها نحنُ أوّلُ الشتاءَ عزيزي، وعندي الكثير من الحكايا لأقصّها له باسمينا. فمن أينَ ابدأَ حتّى انتهي؟ وما النهاية إن خدعتها بداية؟ ..

فهذا حالُنا عزيزي في هذهِ الأوطان العربية، نقتحمُ بدايات الأشياء حتىّ النّخاع، وسرعانَ ما تصفعُنا نهاية أخرى، فنعودُ للوطن عطشى حبٍّ ويُصيبنا اليُتم الرّوحاني.. فكم أنا يتيمةٌ هذا المساء .اسمح لي.. باسمِ حبٍّ جمعنا يومًا،باسمِ فرحةِ عشقٍ عاشتنا، ودمعةِ صبرٍ ألِفتنا، أن يراودني حنيني إليك، وأن أزفَّ لكَ بثوبٍ أبيض كعروسِ نيل، وعمري يدرِكُ كيفَ تكونُ مرارةُ ألّا تكونَ ثوانيهِ لك .يا حبّذا لو يعودُ الماضي، لأغيرَ تسلسُل الأشياء،

فلا ألقاك في دفاترِ أيّامي ودقائقِ ساعاتي. أأعودَ إلى الماضي لأنفيك؟ لأُقصيكَ خارجه؟ أخشى أن أعود لأرى وجهكَ يوم التقينا، فتشفع لي البداية مجددًّا وتُسكرَني بك فأعودُ متسللةً إليك، أعود إليكَ هاربة منكَ

لك، أضعُكَ جبرًا في ثانية هنا، ولحظة هناك.. وأملأً أيامي بك ...كم هي جرداءُ الحياة من دونك .

–وأنتِ.. هل سبقَ وخرَّ قلبُكِ عاشقًا؟؟

-لم يحدث

–لا ينقُصكِ من الكمال شيء

-أخشاهُ هذا الحب، وأشتهيه

-لم لا تنالينَ شرف المحاولة إذن؟؟ ابتسمتُ لمكرك، وقد عهدتكَ رجلاً يعرفُ فنونَ الرّدِ جيدًّا أجبتكَ ممازحة:

- وأين يا تراهُ "سبع البرومب" ؟؟

-أنا - !! أنت؟؟ (لفظتُها مذهولة)

-عم.. أنا.. شاب جميل، أنيق ووسيم.. عاشق مجنون و "سارق قلوب العذارى "فانفجرتُ ضاحكة..

- أتريدُني أن أُجرّبني كعاشقة؟؟ -

لا -؟؟؟؟ مجنونة عشق.. فلتُصيبُكِ لعناتُ عشقي..

واقتحمنا صالة السينما، وكانت تلكَ سابقة بالنّسبةِ لي، جلسنا.. وكنتَ تجلسُ يساري.. هل فعلتها عمدًا؟؟ أن تجلسَ قربَ نبضي لترى كم هو عاريًّا إلى جوارك؟؟ !كانَ المكانُ حالكًا باستثناءِ تلكَ الشاشة العملاقة

المُضاءة، فأنِستُ للظّلمة، وللصّمت .كنتُ أضعُ يدي على طرفِ المقعد، جوارَ يدك، ولم أكن لأعتقد أن يدي ستُزفُ عروسٌ ليدك.

لم أكن أدري أن صبرها سيفضُّ على يديك.. وقد فعلتَ في لحظة جنون.. أن سرقتَ يدي، وكم شَفُعَ دفئُها لفعلتك" .اقتحام" "احتلال" "ثورة" كلّها على حين صمت، واليدُ تشهدُ ألّا حبَّ إلّا أنت..

كنتَ مليكًا لي وآسرًا، وأنتَ تتحسسُ خطوطَ يدي، وشراييني وتلهو بأصابعي وعروقي الصغيرة الظاهرة.. شعرتكَ تُعيدَ خلقها.. وتكوينها .. فأقفُ أشاهدها تتوسدُ يدك بانهزامٍ وحب.. وأحيانًا كنتَ تمسكها بكلتها يديك، فتصيبني الحيرة: أن كفاكَ اقتحام وأُضيئت الأنوار، وإذا بي أحاول أن أغطي عريي.. سألتني:

- أأعجبكَ الفيلم؟؟

-أي فيلم؟؟

وإذا بك تضحكُ عاليًا، فشعرتُني صاروخًا قذفوهُ فجأة لأكوانٍ سبع . وخرجنا من صالة السينما، فعدتَ لفعلتكَ الأولى تحاول إغواء يدي،

لكن جسدي لم يستجب، أجبتك:-

وكما قالت الفنانة نجوى كرم "الليل بيستر لعيوبي "فانفجرتَ ضاحكًا، لكنّني لمحتُ طيفَ خذلانٍ في عينيك التي أحب. سألتُكَ:

- ما بكَ؟؟

-كوني عاشقة مجنونة

- لستَ لي

-وأين خيالُكِ إذن؟؟

دعوة لذيذة من عينيك.. كم وددتُ أسرها، ولكن ظلّت أوهام أساطير الحب تجتاحني، فآثرتُ أن أقتلَ يدي بيدي، وظلَّ جسدي جامدًا عاريًّا وأنا أسيرُ إلى جوارك، فهل قرأتَ أيضًا عريي حينها؟؟ أم أعلنتني عاصيةً على الحبِّ وجنون قلبكَ الذي أشتهي؟؟

أخذنا نسيرُ طويلاً، نتحادث فيما لذَّ وطاب، نضحك، نتسامر.. ونصمت.. لنشتعل من جديد.. كرهتُ صمتك، وعجزي عن قراءتك ..انسحبتَ فجأة من جواري لتذهبَ لأمرأةٍ تجلسُ أرضًا وأمامها أكياس مناديل، وأكرمتها وعدتَ لي باسمًا:

- لقد دعت لي بأن يباركَ لي الله فيك .نظرتُ إليها فوجدتُها تبتسم لي، وتبارك لي عشقي. فضحكت .وما هي إلّا دقائق حتى صادفتنا أخرى تسير، لكنّها اقتربت منّي قائلة:

-

أي حاجة لله، ربنا يخليهولك ويوفقكوا مع بعض "وإذا بي أضحكُ عاليًّا وأنا أُخرِجُ لها ما قسمَ الله لها. نظرتُ لوجهكَ فوجدتكَ باسمًا تنظرُ أمامك.. بسمة شاردة، وأخرى غائبة.. وأنا بين البين!

- هيّا تعالي نبني حوارًا عشقيًّا بيني وبينك عن هذا الشتاء، أريد أن أرى كيف سترتجلينَ عشقًا برفقتي.

- هيّا بنا رفعتَ حاجبًا وقد عجبتَ لاستجابتي السريعة، قلت:

- أغارُ عليكِ من الشتاء، أخالُهُ رجلاً ثلجيًّا يمرُّ قربَ طيفكِ، ليلفَحُكِ نسيمهُ القارص لِمَ لهُ الحقُّ في المرورِ بينَ أطرافك؟؟ لِمَ لهُ حق التّسللِ في وجنتيك؟ تبًّا لهذا الشتاء ..أجبتكَ سريعًا:

- الشتاء له الحق في فعلِ ما يشاء، طالما يقودني متجمدةً إليك، أُطالبُ بحصتي في يديك، وقلب معطفكَ الذي أحب.. فهلّا اقتربتَ قليلاً..؟ الشتاءُ يدعوني إليك ..وارتديتُ يدك.. وسطَ المارّة ..كنتَ مذهولاً لكنّكَ أجدتَ إخفاءَ ذلك، قلت:

- اشتقتكِ هالة –

حينَ لا أسمعُ صوتُكَ،يفرُّ النّبضُ منّي،إلى أن يلتقي نبضُكَ بنبضي،وتحيي أحرفكَ مسامعي ذاتَ لحظة.. أحرفكَ الجميلة تأتي من أوائل الحنجرة، تُداعبُ حبالاً صوتيّة لتولدَ من شفاه ليكونَ المهدُ أذني فتسعدُ الروح وتشقى..

-حبّكِ ..

كانَ لزامًا أن أُلجَم، حتّى وإن كانت مسرحيّة شكسبيريّة بامتياز، والحقُّ أنّي لم أدرِ ما أقول، سحبتُ يدي من يدك ووضعتها في قلب معطفي وقد أعلنتُ حدادًا، وسرقتني حروفها الأربع من جوارك، شعرتُني طيفًا يسيرُ قربك، طيفًا شاذًا عن هذا الكونِ الفسيح
الأغرب.

شعرتُ عينيكَ تقتحمان منفذ صبري، ولم أبالي بعريي مطلقًا حينها . ويطلُّ الماضي ليدندنَ لحنًا في حاضري، أتلكَ يا ترى هي أناملُكَ من تعزفُ حنيني إليكَ هذا المساء؟، لِمَ يا ترى أرى غدي مضرجٌ بك؟ لِمَ أجدُتي لوحةً جميلةً ينقُصُها جنونُ فرشاتك؟ ووردةً قد ضلَّ أريجُها أوراقها؟؟

آه.. ظننتُه قد اكتفى هذا المسمّى "قلبي" من الأمس، ظننتني قد اكتفيت.. لكنّك عشقٌ لا ينضب، ووجعٌ لا يموت.. فبأيِّ حقٍّ تشاكسني هذا المساء؟ ويطلُّ عليَّ طيفُكَ الجميل وكأنَّ لكَ الحقَّ في بعثرتي مجددًا كما كنتَ تفعل دومًا في الأمس؟ الفجيعة يا سيدي، أنّكَ لا تذكّرني سوى بكوني بقايا عاشقة لعالمٍ اسمهُ أنت.. وكيف لعاشقةٍ أن ترضى بأن تكونَ بقاياها؟ أوترضى الملكة ببقايا عرش؟

جلستَ قبالتي في أحد المطاعم، سألتني:

- ما بك؟؟

- أصابني عشق

-إذن؟؟؟

-لا يهم

-تستائين حين أرد عليك أحيانًا ب "لا يهم" ومع هذا تلقينها في وجهي، كم أنتِ متناقضة يا هالة!

- هيّا امضي لي "هيبتا" كما اتفقنا، واكتُب تاريخ اليوم.

أمسكتَ قلمًا، ورحتَ تخطُّ جنونكَ الجميل:

إلى هالة، هالتي أنا.. إلى من تعطيني كل ما لا أحصُل عليه إلّا بها.. حفظتكِ رعاية السماء، ودمتي سعيدة بلا حزن.. أبد الآبدين وما بعده.. وفقط.

ثمَّ رحتَ توقّعُ بإسمكَ أسفلَ الإهداء، كم بدا وجهكَ جميلاً يا عُمر وأنتَ تخطُّ اسمكَ الذي أحب !ولا أدري ما حصل بعدها، إذ انتابتني هيستيريا البكاء، وكأنَّ دموعي قد ضاقَ بها ذرعًا إثرَ الزمن، والحقُّ أنّي أبكي دومًا في الخفاء ..لم تسترني دموعي أيضًا، فكانّ وجهي بين يديك، رحتَ تمسح عنّي أسوأَ الدمع، وتسألني بقلقٍ

-- ما الخطب؟؟ رحتُ ابتسمُ لك بعينينٍ دامعتين.. لكنّي ما استطعتُ ألّا أبكي وألّا يخونني الدمع .خشيتُ يا عمر أن أفقدكَ يومًا فلا يبقَ لي سوى إهداءٌ مذيلٌ بإسمك.. خشيتُ غدرَ الزّمن بي بك، خشيتُ ألّا أجدكَ يومًا في دقائقِ أيامي وساعاتي..

خشيتُ الرحيل.. خشيتُ أن أبحثَ عن بقاياك ونسيمِ عطركَ.. عطركَ الذي طالبَ بإطاحتي أيضًا، وربّاهُ كم فعل!

هكذا عودتني الدّنيا عزيزي..

أن ألُمَّ البقايا.. كعجوزٍ فقدت صباها ذاتَ حب .

رُدَّ قلبي، علّنب أحيا.. علّني أنساك.. فأعودُ أنثى.. لا شبحًا لحبٍّ خانَ جسدينا، رُدَّ قلبي، وأعنّي على النسيان.

نسيان؟؟

قلتُ لكَ يومًا أنّني ألحدثُ بتلكَ الكذبة المدعوّة نسيان، مخلوقةٌ لا تنسى.. وكيف أنساك؟؟

أنتَ مرسى، على قارعةِ حلم..

كشفتُ لكَ عمّا في نفسي، فأغضبكَ ما قلت.. وقلتَ لي أنّه لن يبقى منك سوى توقيعك، وأنّكَ ستظلُّ دومًا في الجوار.. فرحتَ تشطبُ

توقيعكَ.. وقلت:

-لِمَ البقايا؟؟ والأصل موجود؟؟

كم وددتُ أن أدفنَ عمري بين أحضانك حدَّ أن أفقدَ هويتي، ولكن تأبى النّفسُ فعلَ الحبِّ أيضًا عزيزي..

أعلنتْ الشمسُ مغيبًا.. فآنَ لي رحيل.. وسرنا ظلاً بظل، وقلبًا بروح، وقبلةً بشفاه،، وعدتُ أضيعُ في يديك.. على نخبِ وداع.

كانت عيناكَ تخبرني بلقاءاتٍ أخرى ملأى بك وبجنونكَ وبترويضي..
وراحتْ شفاهُكَ تُخطّطُ لكلينا تلكَ اللقاءات القريبة، كم تبدو الأماني جميلةً في عينيك.. والحلمُ شهيًّ على شفتيك...

أوصلتني إلى المحطة..

ورحتَ تبتسم.. وأنتَ تصاحفني..

صافحتكَ، و..

اقتربتُ من أذنك وأنا أقفُ على أطرافِ أصابعي:

-في حياةٍ أخرى .. أنتَ حبيبي، هذه الحياة لم تُخَلق لنا.. ألقاكَ هناك..
في عالمٍ موازٍ آخر.. تكونُ فيه أنتَ نبضي، وأنا حُلمَك.

ووضعتُها قُبلةً على خدّك..

وسرتُ وسطَ المشاه.. ويدي.. جرداءُ منك

حلا المطري